علاقتنا مع الله كأساس لعلاقتنا مع البشر

الأرشمندريت زخريا زخرو
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في حياة الإنسان فترتان ذات أهمية كبرى. الأولى هي الشباب، وفيها يضع أسسًا صلبة لكل حياته ويفتدي وقته بثروة الأبدية. والثانية هي الشيخوخة، حيث تُختتم حياته النزيهة الجديرة بالثناء بنفس إكليل البِر الذي يعطيه الرب القاضي الأبدي الصالح لكل الذين أحبوا مجيئه إلى الأرض وكرّموا إنجيله.

يتّسم الشباب بالحماس لنور المعرفة، والحماسة للرغبات الطيبة، والبحث عن الكمال، وقبل كل شيء خَلْق علاقات شخصية تبرز مواهبنا الطبيعية. الشيخوخة، إذ يسبقها احترام زمان الحياة الثابت الحكيم من خلال النعمة غير القابلة للفساد، التي تغذي العطش إلى عالم أسمى وتتوق إليه وتسارع لبلوغه. الشيخوخة مُنعَمَة بهِبات تفوق الطبيعة مليئة بالرجاء الحي للعناق الحنون لـ "أبي الرحمة وإله كل تعزية" (٢كورنثوس ١:٣).

١. العلاقات الشخصية

سوف نتحدث اليوم قليلاً عن موضوع العلاقات الشخصية التي تشغل الشباب كثيرًا، كما أي شخص آخر. فلكي تكون العلاقات خلاقة وحيوية، يجب أن تستوفي بعض الشروط المسبقة الضرورية. يجب أن يكون لدى كل إنسان يدخل في علاقة شخصية فكرة واضحة عن أصوله وهدفه. لقد خلقه الله من لا شيء وبطريقة مباشرة، إذ اخذ تراباً من الأرض بيديه ونفخ في أنفه روح الحياة. يمكن القول، أن الله، بمعنى ما، بخلقه الإنسان على صورته ومثاله قد نسخ ذاته.

وضع الربُّ الإنسانَ في فردوس البهجة وأعطاه وصية واحدة بقصدِ مساعدته على البقاء على قدر مخلوقيته المتواضعة. بهذا يتمكن من الحفاظ على علاقة محيية مع خالقه، حتى يصل أخيرًا إلى الهدف العظيم من كماله الروحي. وطالما احتفظ بهذه الوصية، استمتع بعلاقته مع الله وعاش في حضرته بامتنان وسلام وحلاوة المحبة المتواضعة. في نور وجه الله وجد آدم أيضًا علاقة منسجمة مع حواء أصبحت له مصدرًا للفرح والإلهام. لقد رآها حياتَه وأغلى من أي شيء آخر أحاط به في الجنة. شكر الله عليها، على المُعين الذي تلقّاه منه فقال "هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي" (تكوين ٢:٢٣) لقد شعر أن حواء هي قلبه وأن شفافية علاقاتهما مثالية جدًا، على الرغم من أنهما كانا عاريين، إلا أنهما كانا بلا هوى و"لم يخجلا"(تكوين ٢:٢٥).

ومع ذلك، لاحقًا، حملهما اقتراح الشيطان أن يصبحا آلهة بعيدًا فعصى آدم وحواء وصية الله، ما أدّى إلى زعزعة علاقتهما به وكذلك العلاقة بينهما. كمتعدٍّ وآثمٍ، لم يعد آدم يشعر بأنه قريب من الله وصديق له قادر على التحدث معه وجهاً لوجه، ولا مع حواء التي تشاركه ذنبه، "فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ" (تكوين ٣:٨). تعدّي الوصية أبعد المخلوقَين أولاً عن الله وملأهما الخوف من الموت الذي دخل حياتهما كعقاب عادل كما أنذرهما الله. لم تعد البراءة وشركة المحبة بينهما كما هي. عندما دعاهما الله، في حنانه العظيم، تمردا وأدانا الله كسبب لمأساتهما، ورأيا بعضهما البعض ليس كما من قبل، ليس كالحياة لكل منهما بل بالأحرى كسبب للموت.

٢. البطريرك يعقوب

استمراراً لهذا التاريخ المقدس، نرى أن العلاقات بين البشر ازدادت مأساوية. على سبيل المثال، قدّم قايين ابن آدم ذبيحةً كريهة لله الذي رفضها. امتلأ قايين بالحسد وكراهية الإخوة فقتل أخاه هابيل.

بالتأكيد، نظرًا لأن جميع أجيال البشر كانت تعيش تحت حكم الخوف من الموت، فقد استمر إفسادهم من خلال محبة الذات والصراع من أجل البقاء، وفي هذا الخداع أصبحوا قادرين على ارتكاب كل الجرائم.

في مسار العصور الرتيب، لم يتمكن سوى عدد قليل من الرجال الصالحين من الحفاظ على بعض آثار معرفة المخلوقَين أولاً لله. فإذ احتفظوا في وعيهم ببعض النور من التبجيل لله، تأهّلوا للسعي نحو علاقة جيدة معه. في ضوء هذه العلاقة أُعطي لهم، بطريقة نبوية، اختبار حالات بشّرَت بالنعمة والحق اللذين سيأتيان من السماء في ملء الزمان.

أحدى الشهادات القديمة التي أعطيت لنا في الكتاب المقدس رواية البطريرك يعقوب. إذ نفى نفسه في الصحراء وعانى الكثير من المشقة، أراد الصِدّيق يعقوب العودة إلى منزل أبيه إسحق. واجهته معضلة مخيفة. إذا بقي في الصحراء فسوف يتدهور إلى ما لا يمكن إصلاحه، وإذا عاد فلن يفلت من غضب أخيه عيسو الوحشي. وإذ امتلأ بالحزن من هذا المأزق البشري لجأ للصلاة إلى الله. لقد جاهد طوال الليل لأن يتواضع من أجل التواصل مع الله. مع طلوع الفجر أحسّ بالحضور الإلهي وشدد صلاته قائلا لله أنه لن يتركه ما لم يعطِه بركته. ثم كلّم الله يعقوب وأعطاه كلمة مثقَلَة بالمعنى: "أَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ" (تكوين ٢٨:٣٢).

بالفعل، في اليوم التالي، خرج يعقوب للقاء عيسو مختوماً ومحروساً ببركة الله. وعيسو الذي كان يلاحق أخاه في السابق بجيش ليقتله، عانق يعقوب وبكى. وهكذا أعيد تأسيس المحبة الأخوية بينهما. علاوة على ذلك، وكما تدل الأسفار المقدسة، كانت بركة الله ليعقوب قوية جدًا لدرجة حتّى أنه رأى وجه عيسو على أنه "وجه الله" (تكوين ١٠:٣٣). للحصول على بركة الله، واضع يعقوب نفسه حتى النهاية في صراعه طوال الليل مع الله. وتواضع أمام عيسو أيضًا، وسجد إلى الأرض سبع سجدات وهو يقترب منه. استجاب الله للتواضع الذي جاهد به يعقوب في الصلاة بإعطائه كلمة كانت قادرة على تشكيل الأساس والقانون الذي يضمن ويلطّف ويجعل كل علاقة تثبت وتؤتي ثمارها، ويمنحها قيمة لا تفسد إلى الأبد: لأنك كنت قوياً مع الله، فستكون قوياً مع الناس.

٣. النبي يوئيل

يعطينا النبي يوئيل أيضًا كلمة نافعة قادرة على تنوير أذهاننا وحفظ قلبنا في علاقة كاملة مع الله ومع كل خليقته. فيقول: "اَلْجَفْنَةُ يَبِسَتْ، وَالتِّينَةُ ذَبُلَتْ. اَلرُّمَّانَةُ وَالنَّخْلَةُ وَالتُّفَّاحَةُ، كُلُّ أَشْجَارِ الْحَقْلِ يَبِسَتْ. إِنَّهُ قَدْ يَبِسَتِ الْبَهْجَةُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ" (يوئيل ١٢:١). بحسب النبي، هناك فرح واحد فقط يستحق الإكرام منّا. إنه الفرح الذي مصدره الله نفسه، لأن هذا الفرح تامٌّ و"كامل" (يوحنا ٢٤:١٦ و١٧:١٣). يعمل الفرح الممنوح من الله للإنسان بالروح القدس. نحن نكرم هذا الفرح الثمين، عندما نحافظ على ضمير صالح وحياة نقية بحفظ الوصايا المقدسة. هذا يقوي قلوبنا للوقوف بشجاعة وخوف في حضور المسيح، الذي يكافئنا بسلام لا يوصف بالمصالحة مع الله والعزاء الذي لا يفنى والذي يشهد لروح خلاصها الأبدي. إن الفرح المقدس والكامل الذي وعد به المسيح بنفسه يلهم أيضًا الخوف والحكمة، حتى لا تكون ثقتهم بأنفسهم بل لأن يبقوا ضمن اعتبار مخلوقيتهم ويقتنوا التمييز لاستخدام جميع المصادر الطبيعية للفرح والعزاء لمجد الله وتقديسهم.

ومع ذلك، عندما يخجل الناس من الفرح الحقيقي النقي الذي ينبع من الله، فإن كل مصادر الفرح الطبيعية على الأرض تجفّ وتفقد القدرة على مواساتهم، لأن نعمة الله المحيية لا تعود تغطيهم. إنهم يحملون في داخلهم علامة محبة الذات وبذور الفساد والموت. ومع ذلك، إذا ساد فرح الله على حياتنا، فستكون علاقاتنا أيضًا مع إخوتنا مصادر فرح مفعَمَة بالإلهام الإبداعي والاستقرار.

٤. مواهب الإنسان الطبيعية والتي فوق الطبيعة

يحدث شيء مشابه مع مواهبنا الطبيعية: عندما يضع الإنسان فيها كلّ ثقته، ويعطيها قيمة مطلقة، فإن مواهبه ذاتها تسدّ الطريق المؤدي إلى اكتساب المواهب التي فوق الطبيعة التي يمنحها الله في صلاحه. نلاحظ الشيء نفسه في علاقاتنا: إن لم تتأسس على ضمان علاقتنا المقدسة بالله، فإنها تكون ضعيفة وهشّة، ومعرّضة دائمًا للانهيار ولخطر أن تصبح مصدر حزن وعذاب لا ينتهي. لهذا يقول الرب أنّ كل حكيم علم سر ملكوت الله "يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُدًا وَعُتَقَاءَ" (متى ٥٢:١٣). وهذا يعني أنه يتصرف بطريقة تجعل كلّ سمات طبيعته غير المفتداة الطبيعية تخدم نمو المواهب الخارقة التي يمنحها الله وفقًا لعملية تجديده الروحي لمجد الله وخلاص جميع البشر.

بالتأكيد، كل ما حدث للقدماء لم يكن سوى ظلال ونماذج لما كان الله على وشك الكشف عنه في الأيام الأخيرة. في شخص الرب يسوع، نقل إلينا الحقيقة الكاملة وأوصلنا إلى معرفة العلاقة الكاملة مع الله والناس. خلال حياته في الجسد، أظهر المسيح علاقة المحبة الكاملة الموجودة في حضن الثالوث الأقدس. الابن يكشف ويمجّد اسم أبيه السماوي والآبُ يمجّد الابن ويشهد مرارًا وتكرارًا أن الابن يعيش بالكامل في الآب والآب في الابن وأنه "ابن محبته"(كولوسي ١٣:١) و"سروره" (أنظر متى ١٧:٣، ١٨:١٢، ٥:١٧ ومرقس ١١:١ ولوقا ٢٢:٣).

٥. محبة المسيح

الابن يمجد الآب والآبُ يمجد الابن وبحق "سريعاً" (يوحنا ٢٣:١٣) بطريقة طبيعية. وبالمثل، فإن الروح القدس ينبع من الآب، ويستقرّ في الابن ويمجّده، مبشرًا بمحتوى حياة الابن ومرشدًا تلاميذ المسيح "إلى كل الحق" (يوحنا ٣:١٦)، أي إلى ملء المحبة الإلهية.

فالمسيح هو الذي أظهر جوهر شخصه الإلهي في إشارة إلى أبيه السماوي، مطيعًا لوصيته وبطريقة كاملة "ساكنًا فيه في المحبة" (يوحنا ١٠:١٥). في الإشارة إلى الإنسان، أظهر أيضًا محبة كاملة: "إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى" (يوحنا ١:١٣). لكي يعرف العالم أن محبته حقيقية وكاملة تجاه الله ونحو الإنسان، مضى إلى آلام وصليب الجلجثة. لقد نزل إلى القبر وأعمق منه، إلى أسافل الأرض، لكي يملأ العالم المخلوق بحضوره الإلهي ويمنحنا الفرصة لمقابلته في حياتنا في أي موقف قد نجد أنفسنا فيه. على الرغم من أنه بريء وبلا خطيئة، فقد جعل نفسه لعنة عنّا (غلاطية ١٣:٣)، حتى يتمكن بموته وقيامته من مصالحتنا مع الآب السماوي وبصعوده فوق السماوات يكرّمنا بمواهب الروح القدس.

أعطانا الرب العجيب يسوع الوصية بأن نتبع "مثاله" (يوحنا ١٥:١٣)، إذا أردنا أن نصير ميراثه الأبدي. لقد وضع نفسه وأصبح خادمًا لخلاصنا، وبذل حياته "فدية" (متى ٢٨:٢٠ ومرقس ٤٥:١٠) ليفدي جميع الناس من موت الخطية.

٦. كلمة المسيح

بالتأكيد، إن إنجيل المسيح لم يقبله الإنسان ولا هو بحسب إنسان (غلاطية ١١:١-١٢). وهو يؤكد لنا بنفسه أن "بدونه" (يوحنا ٥:١٥) لا يمكن إتمام أي عمل صالح. هذا هو السبب في قوله لنيقوديموس أن عليه أن "يولد ثانية" من فوق (يوحنا ٣:٣)، لفهم أسراره، ولتفعيل وصاياه، وليصبح بالتالي "يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ" (لوقا ٦٢:٩).

في حالتنا المعطاة، نعلم أنه ما من شيء قادر على مساعدتنا في تحقيق هدفنا العظيم، وهو أن نصبح أبناء الملكوت، لا غرور العالم الذي يحيط بنا، ولا إنجازات ذكائه المخلوق القابلة للفساد. كما أننا لا نمتلك ما يكفي من النور في أذهاننا والقوة في قلوبنا حتى نتغلب على كل "نَجَاسَةٍ وَكَثْرَةَ شَرّ" (يعقوب ٢١:١) نحملها في داخلنا، حتى نرتفع فوق الحائط الذي يحيط بنا. نحن أضعف من أن نقف في حضرة

الله وبالتالي نحصل منه على موهبة الروح ونصبح "خليقة جديدة" (٢كورنثوس ١٧:٥) قادرة على الإتيان بكل عمل صالح يرضي الله وعلى علاقات صادقة مع إخوتنا.

ومع ذلك، سنكون مبارَكين إذا كنا واعين لفقرنا وتفاهتنا، ولجأنا إلى الله واثقين بالشرف الذي منحنا إياه بوصاياه ووعوده. كما يؤكد إنجيل المسيح الأبدي "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ" (يوحنا ١٢:١). تتمّ ولادة الإنسان الجديدة بقبوله كلمة السيد المسيح. هذه الكلمة، باعتبارها "زرعاً" (لوقا ١١:٨) من الله، تبقى فيه كناموس الحياة ولا تسمح له أن يخطأ "لأنه من الله وُلِد" (١يوحنا ٩:٣).

٧. فكر المسيح

للإنسان المتجدد فكر آخر هو"فكر المسيح" (١كورنثوس ١٦:١)، وهو فهمٌ آخر "الَّذِي فِي الْمَسِيحِ" (فيليبي ٥:٢)، قلب آخر فيه "يَحِلُّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ" (أفسس ١٧:٣). إنه يصير مثل المسيح ويتمم قصده.

يكتسب الإنسان "فكر المسيح"، ما يعني أنه يعرف خطة الله التي وضعها لكل نفس وعنده شوق ملهَم إلى أن يصبح شريكًا مع الله في عمل التجديد الإلهي العظيم. إنه يشعر بالفخر والمنفعة لأن خالقه يزوره من المساء حتى الصباح ومن الصباح حتى المساء (أيوب ١٨:٧). من هذا المنظور يرى الهدف من كل رجل، ولهذا السبب لا يجرؤ أبدًا على إيذاء "واحد من هؤلاء الصغار" (مرقس ٤٢:٩)، من إخوته الذين مصيرهم مشترك معه.

كما حمل المسيح في داخله جميع أجيال البشرية، صلّى من أجل الجميع بعرق مثل قطرات الدم في الجثسمانية، تألّم وصلب وقام مرة أخرى من أجل خلاص العالم كله، وصعد إلى السماء ليشفع من أجل كلّ آدم. وهكذا فإن الإنسان الذي ولد من جديد روحياً يحبّ الله من كل قلبه ويصلي من أجل خلاص الجميع ومن أجل خلاصه. فكما أصبح المسيح آدم الجديد الذي في شخصه لخّص كل الأشياء، كذلك فإن الذي تجدد يصبح مثل آدم آخر، مركزًا آخر للخليقة، يقدمه أمام الله في صلاته الابتهالية. مثل هذا الرجل لا يستطيع أن يفعل أي شيء غير تكريم أخيه الإنسان.

قلنا أن الإنسان المولود من الروح يكتسب الفهم "الذي في المسيح يسوع". وكما يشرح الرسول بولس، يتجلّى هذا الفهم في منافسة مقدسة بين المؤمنين: مَن سَيتواضع أكثر أمام الآخر، ويضحّي بإرادته من أجل الآخر، ومن سيكرّم الآخر ويحبه أكثر من نفسه؟ (فيليبي ٢:٢-٤، ١كورنثوس ٢٤:١٠). في الأساس، هذه هي السمات المميزة للتواضع والمحبة التي أظهرها المسيح عندما جاء إلى الأرض "لا ليُخدَم، بل ليَخدِم ولكي يبذل حياته عن كثيرين" (متى ٢٨:٢٠، مرقس ٤٥:١٠). تُنقل هذه الصفات كفضائل للمؤمنين بولادتهم من إنجيل "أب الدهر الآتي" (أشعياء ٥:٩)، " رَئِيسِ الإِيمَانِ ومُكمّله" (عبرانيين ٢:١٢) لخلاصهم، يسوع المسيح. كونها مؤسَّسة على هذا الفهم ومبادئ الحياة، تصبح علاقات أبناء الله مثل العلاقات الموجودة في الجنة حتى أثناء هذه الحياة على الأرض.

٨. الكبرياء واليأس

كما قلنا أن الذين يولدون من الروح لهم قلب يسكن فيه المسيح "بالإيمان". في الأنثروبولوجيا الكتابية والتقليد الأرثوذكسي، قلب الإنسان هو مركز شخصيته. هناك تتمّ الخيارات وتُتخذ القرارات. هناك يظهر الله وهناك يسكن. هناك يلتقي الإنسان مع الله ومن خلال الله يشعر بالاتحاد بجميع أجيال البشر. يجعل الله قلبه "موطنًا لقدميه" (لوقا ٤٣:٢٠) ويوسعه بنعمته، حتى يحتضن السماء والأرض. إن الرجل الذي يحمل هذا الاتّساع الإلهي بداخله سيقبل دائمًا أخاه كحياته ولن يرفضه أبدًا إذ إن ذلك يؤدي إلى بتر كيانه. العلاقات التي يخلقها مثل هذا الرجل والكلمات التي ينطق بها ستعلّم قلوب كل الذين يقتربون منه بالنعمة. إنه يعرف سرًا عظيمًا للحياة الروحية: أنه بحاجة فقط إلى أن يقدم لله قلبًا منسحقًا ليبني

فيه "قلبًا طاهرًا" (مزمور ٥١:١٠) قادرًا دائمًا على معاينة آثار حضوره والانتقال إلى هناك حيث يختبئ كنزه (لوقا ١٢:٣٤، متى ١٣:٤٤).

لرجل الله عدوّان فقط يحفظ نفسَه منهما: الكبرياء واليأس. يمقت الكبرياء، لأنها تبرّد القلب وتجعله عاجزًا عن المحبة. الرجل الممتلئ من ذاته مغلق أمام الآخرين ولا يستطيع إفساح المجال للآخر؛ أهم آخَرٍ هو الرب، ولكن الأخ أيضًا. يتجنّب رجل الله اليأس أيضًا لأنه يعني أن المخلص الله غير قادر على التغلّب على الشر بداخلنا ما يجعله يقع في خطيئة التجديف الذي من بعده يُمات القلب ولا يعود قادرًا على التواصل مع الله ولا مع الناس.

التواضع يحررنا من هذين الكابوسين، الكبرياء واليأس. كما أن الملح يحفظ الطعام وينكّهه، كذلك التواضع يحفظ المحبة ويجدّدها دوماً. التواضع يجعل القلب مرضيًا عند الله حتى يكتمل بناؤه كهيكل لله ومسكن لروحه.

٩. التقدم الروحي

كما نزل المسيح أولاً إلى الأجزاء السفلية من الأرض ثم صعد فوق السماء، هكذا المحبةُ المتواضعة ترفع سلمًا في قلب الإنسان. إنه نفس السلم الذي استخدمه المسيح لينزل إلى الإنسان، يستخدمه الإنسان للصعود إلى الله، لأنه "في قلبه قصد الصعود" (مزمور ٨٣:٦). وإذ يُقاد الإنسان بروح الله يقلّص الممارسات الخاطئة يقضي على الرغبات والأفكار الشريرة التي هي عداوة لله. لقد شفي من وباء الخطيئة، وهو ينمّي التوق إلى الخيرات السماوية، وأداء الأعمال المرضية لله، والدخول في التوسيع السماوي للمحبة المقدس للآب والابن والروح القدس. فهو ينطلق "من قوة إلى قوة" (مزمور ٤٨:٧) ليصبح ابنًا ووارثًا لله ووريثًا مشاركًا للمسيح.

الله يعلم أن ما من أحد قادر بمفرده على الحصول على كل ثروة مواهبه. لهذا السبب لم يتخلَّ عن الإنسان في خراب سقوطه، بل أرسل ابنه الوحيد إلى العالم وكمّل جسداً في التاريخ هو الكنيسة، ومنحه كل مجد وكمال مواهبه. نصبح أعضاء في الكنيسة بالإيمان بكلمة المسيح والتوبة حتى نتمكن من تكييف أذهاننا وقلوبنا مع إرادته الخلاصية. لكل شخص يتوب موهبة فريدة من الروح القدس. هذا يجعله متحدًا مع جسد المسيح العجيب ويجعله شريكًا في كل مواهب جميع أعضاء شركة النعمة السامية هذه، من القديسين في السماء ومختاري الله على الأرض. في هذه الشركة الإلهية-البشرية، يغتني الإنسان، وفي هذا له مرجعه الذي يوجهه ويبقيه بلا هوادة على طريق الحق الذي كشفه المسيح. تتميّز العلاقات بين أعضاء الجسد بالمحبة التي تعمل فيها وفقًا لمعيار تطبيق وصايا المسيح. في الجسد، كما يقول الرسول، "نُلاَحِظْ بَعْضُنَا بَعْضًا لِلتَّحْرِيضِ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ" (عبرانيين ١٠:٢٤). الكمال الروحي ممكن فقط في الجسد الكنيسة، في شركة مواهب جميع أعضائها. وهذا ما أكّده الرسول عندما قال أنه "مَعَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُدْرِكُوا مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالطُّولُ وَالْعُمْقُ وَالْعُلْوُ" (أفسس ٣:١٨) في محبة المسيح.

بشكل منمنم، نحن نرى نفس التقدم الروحي الذي تحقق في الرابطة المتناغمة في المسيح بين الزوج والزوجة، عندما يسلك الاثنان معًا مجاهدَين بتواضع ليكمل كلٌ منهما الآخر بمواهبه الخاصة، وبالتالي لبلوغ كمال المحبة غير الأنانية، أي حجرة انتظار المملكة السماوية.

في علاقاتنا وفي شركتنا مع الله والناس، حيث يجب أن نعمل لتحقيق غايتنا، لحرية الإنسان أهمية كبيرة. في الله، الحرية مطلقة لأنه قادر على أن يخلق من لا شيء. لا ينقصه شيء ولا يحتاج إلى شيء. مع ذلك، بدافع المحبة الفائضة، لم يخلق الإنسان فحسب، بل لخلاصه واضع نفسه أيضًا في صورة خادم ومخلص للخطأة من الجحيم السفلي (مزمور ٨٦:١٣). في الإنسان، الحرية هي للقلب ووفقًا لمقياس عطية الله. وكلما سعى إلى العيش بدون خطيئة، تحرر من استبداد الأهواء.

١٠. القداسة

لا يستطيع أحد أن يرغم الله. ولا هو يفرض مشيئته على مخلوقاته التي وهبها المنطق. وبالمثل، لا يريد مَن عنده موهبة من الله أن يفرض سلطانًا على أي فانٍ، ولا أن تكون روحه تحت سلطة شخص آخر. إنه يقتدي بالمسيح الذي غلب العالم بحبه المتواضع وجذب إليه (يوحنا ٣٢:١٢) كل مَن يريد أن يتبعه بحرية.

الحرية التي يسعى إليها الإنسان المولود من الروح ليست سياسية ولا اجتماعية بل روحية وقلبية. كلما ازداد تقدّسه، ازداد حريةً. القداسة ليست مبدأً أخلاقيًا ولكنها روحية وجودية بحتة. ليس القدّيس مَن ينجح في أن يقتني أخلاقاً كاملة أو سلوكاً خارجياً، بل هو الذي يحفظ كلمة المسيح، ويجمع في قلبه نعمة الروح القدس بثباتٍ. عندما ينفتح قلب الإنسان على النعمة، تستقرّ فيه النعمة. بهذه النعمة يكتسب الإنسان قوةً على قلبه، الذي هو جذر كيانه، وبالتالي يكتسب قوة على كل طبيعته أيضًا. هكذا يبني هيكل الله في داخله. إنه حر ولا يريد أن يخطأ، ليس لأنه محظور أخلاقياً وفي غير مكانه، بل لأنه لا يريد أن يهدم هيكل الله بداخله.

للحصول على العلاقة المرغوبة مع الله، ومحبته من كل قلوبنا، والبقاء دائمًا في حضرته، من الضروري أن تقتني قلباً نقياً وحرّاً. يصبح القلب حراً عندما تنزع التوبةُ قانونَ الخطيئة من داخله وتصير كل وصايا الله شريعةَ كياننا الوحيدة. ثم يُمنح الإنسان حالة إلهية ومحبة تتجلى في الصلاة المستمرة وعِبرها محبة أخيه الإنسان. تظهِر هذه الصلاة أن الإنسان هو صورة الله ومثاله وأنه يحبَ ويكرم هذه الصورة في أخيه.

كلمة الله تهدّئ طبيعتنا. محبتنا لها تبقينا على طريق مشيئته الصعب، حتى نضع أنفسنا في المرتبة الثانية ونكرّم الآخرين أكثر من أنفسنا. إن كلمة الله هي دائمًا كلمة الصليب التي ترشدنا إلى وفرة الحياة الإلهية وتمنحنا حرية البراءة من الخطيئة.